النهضة العلمية

للأستاذ علي عبود العلوي

« ظلت الحياة الأدبية في حضرموت برهة من الزمن وهي تحت السير في اقتفاء السمة التي كانت مثلبة على الآداب في القرون الماضية ، وما زالت كذلك إلى أن أتاح الله لها من يوجهها الوجهة الصادقة فنهضت من كبوتها نهوضاً تجلى أثره في أدب الكهول اليوم كما اشتهر به أدب الشباب . والفضل في ذلك يعود إلى زعيم النهضة الأدبية السيد أبو بكر ابن عبد الرحمن بن شهاب العلوي الموجود سنة ١٣٦٢ هـ والمتوفى سنة ١٣٤١ هـ .

وهذا ما حدا بنا لدراسة أدبه دراسة مفصلة وهذه الكلمة من إحدى لبنات هذه الدراسة أخص بها «الرسالة» القراء » .

ما اهتزت ربوع الوطن الحضرمي كاهتزازها للثورة الفكرية التي امتد سناها على وادي ابن راشد[1] إن لم نقل تجاوزته إلى الأماكن الأخرى .

أجل هكذا انبعثت في حضرموت روح النهضة العلمية في القرن الثالث عشر الهجري فسطع تاريخها بأعلام لهم فوق مكانتهم العلمية المرموقة مكانة الزعامة السياسية والاجتماعية والإصلاحية والاقتصادية ، وكل هذه قيم عظيمة تستدعي من المؤرخ المنصف الوقوف أمامها وقفة الخاشع ليتهيأ له إصدار الحكم عنها بعد نفاذ الفكر والتحليق به فوق أوج مراميها ، وبذلك ينير السبيل للتاريخ ، وهو في أمان من أن يطغى الحكم في ناحية فيمس النواحي الأخرى .

ومن شأننا في هذه الكلمة أن نلم بالموضوع إلمامة وجيزة ندرك بها تاريخ العصر الذي نشأ فيه شاعرنا الشهاب العلوي ومعرفة مقدار الأثر الذي تركه في أدبه وميوله .

امتدت الثورة الفكرية في حضرموت امتداداً لم يسبق له مثيل فيما قرأناه من تاريخ حضرموت وسير أعلامها ؛ إذ انبعثت منها روح فياضة ترمي إلى محو الأمية ، وتنوير الأفكار والقيام بنشر العلم قياماً يرتكز على أن تتخطى الدعوة إليه المدن والقرى التي تزدان معاهدها ومساجدها بالدروس العلمية الخاصة والعامة إلى نشره بين جميع الطبقات حتى التي تسكن الجبال من البادية بإرسال المرشدين إليهم تلو المرشدين .

ومرد هذا فيما نعتقد أنه من قبيل رد الفعل . فقد أنت حضرموت من الظلم الذي طال عهدها به والعبودية والتسخير التي فرضها كل من له أي قدرة إلى حد العامة الذين تناط بهم إدارة الحياة الاجتماعية فقد كونوا لهم رابطة تساعدهم على الإضراب عن العمل وأداء الواجبات إن لم تمنح لهم الأتاوة المفروضة بحسب رأيهم .

ومما شجع هؤلاء الفوضويين على العبث بالأمن ضعف الحكومة الحضرمية — أستغفر الله — بل فقدها بالكلية وتلاشي أمرها ولم تبق لها سمة معروفة ولم يذكر التاريخ إلا تعدد الحكام ما بين كل ربعة وأخرى بل في البلدة الواحدة[1] .

لا نستثني من هذه الفوضى إلا ما كانت تنعم به بعض القرى التي يناط الحكم فيها لبعض السادة العلويين — المناصب — أو القرى التي يحكمها بعض أبناء بيوتاتها ممن كانت لأجدادهم مكانة علمية وصلاح وفضل ويسمون أيضاً (بالمناصب) .

من أجل هذا فكر أكابر علماء القطر الحضرمي وقادة الرأي فيه في الوسيلة التي يمكن القضاء بها على هذه الفوضى .

وأي وسيلة يبدهم أعظم من نشر الدعوة الإسلامية بصورة أوسع نطاقا مما كانت قبلها .

وأنى تلاقى دعوتهم آذاناً صاغية إن لم تتجاوز المحيط الذي طالما تاق إلى وجود قيام الوالي العدل من كثرة ما أصيب به من الظلم ؟

فلا بد إذاً من توسيع نطاق الدعوة بصورة أكبر مما عرفتها حضرموت في الماضي ليضمنوا بها بعض الفائدة إن لم تحققها كلها .

وما دام مصدر الفوضى آتيا من قبل البادية التي تروع القطر بما تصبه على البلاد من ويلات تلو الويلات . فلابد إذاً من غزوها في عقر دارها بالدعوة الاسلامية وتعريفها ببعض الواجبات وإرشادها إلى ما فيه الخير والصلاح .

---

(١) ويطلق عليه عرفا من محل يسمى بالمقاد غربي (شنبام) إلى نبي الله هود عليه الصلاة والسلام .

(١) راجع من كتابنا (الشهاب العلوي) مقال من تاريخ حضرموت السياسي . أو : النهضة السياسية .

وهذه دعوة عظيمة لا بد من تدعيمها بقوة الروح والإيمان الصادق ، وصدق العزيمة وبذل الأموال ولا شك أنها أصابت فى قائدها المحنك وزعيمها الممتاز من أسبغ الله عليه الفضل الواسع وأهّله بجميع المؤهلات التى تخول له قيادة مثل هذه الحركة العظيمة بما أوتيه من نباهة الذكر والسمة العلمية ، والفطنة ، وقوة الإيمان ، والعزيمة الصادقة ما هيأ لدعوته أن تجوب القطر الحضرمى ويتردد صداها بين الخافقين .

فمن هذا الزعيم الذى أسندت إليه حضرموت قيادة هذه الحركة الاصلاحية ؟

هو العارف بالله السيد أحمد بن عمر بن سميط العلوى المتوفى سنة ١٢٥٧ هـ .

نشأ هذا السيد الإمام فى محيط يشع بالسؤدد والمكارم ، وزحابة الأخلاق ؛ تحيط به هالة من النور والفضل والنبل والعلم ومراوة التقوى فكان من هذه المكونات فذاً فى التاريخ .

وعلى نبعة العلم والده السيد عمر بن زين تثقف ثقافته الأولى ؛ وكان السيد عمر مشغوفا بالقراءة ليلا ونهاراً ، وحينما استطاع السيد أحمد الانضماج فى الصف الذى يصله بركب والده العلمى أصبح هو الذى يزوى ظمأ والده بالقراءة عليه ليلا ونهاراً[1] . وبالطبع تهيأ له من الاتصال بوالده ما لم يتهيأ لغيره ، وهذا له أثر عظيم فى تكوينه العلمى ، وكان هذا شأنه إلى أن لحق والده ربه فى ٢٤/٣/١٢٠٧ هـ فاتصل بابن عمه السيد عبد الرحمن بن محمد زين[2] ، وامتد اتصاله بعد هذا بأكابر رجال عصره وهم من الكثرة بحيث لا يمكن الإلمام بهم فى مقام يقتضى أن نسير فيه بالإيجاز .

وما إن ترعرع فى الطلب حتى تم له من التفوق ما لا يدركه إلا الصفوة المختارة من أمثاله .

وما كانت نشأته إلا فى عصر مضطرب أشد الاضطراب تعصف به الناحية السياسية القلقة من جانب ، والحياة الاجتماعية المريضة من الجانب الآخر كما تتجاوب فيه الموجة العلمية الفياضة .

وليس بمستغرب أن يدوى صيته فى القطر الحضرمى تجاه التموجات التى كان يذيعها من على منبر الإصلاح نحو التوجيه العام ، ومن كان فى مثل مكانته العلمية خليق أن ينهل من نبع علمه الفياض الراغبون فى المعارف والثقافة العالية .

وحسبك أن تعلم أن حضرموت لم تتوان عن الاتصال بهذا السيد الإمام . بل اندمجت فيه وكرعت من حياض علمه الزاخر وانتشت بدعوته الإصلاحية وتبارت فى القيام بتنفيذها .

كيف كانت حضرموت فى عصره ؟

وعلى ماذا تنطوى دعوته ؟

أما حضرموت من الناحية السياسية فقد تمزقت أوصالها وأصبح النفوذ لمن عزّ كما فى المثل . ولبحث هذه الناحية موضع آخر[1] .

أما ما يتصل بوشائج البحث إلى هذه الناحية فلا بأس من أن نثير السبيل فيها ولو قليلا لكى نتصور أثر النهضة العلمية تصوراً تاماً .

١ — كان من أثر قسوة الظلم والفوضى التى سادت فى هذا العصر أن تمزقت أوصال الحياة الاجتماعية فنتج عن هذا ازدياد الهجرة ازدياداً خيف من عواقبه الوخيمة بأن تصبح البلاد ولم يبق بها من السكان أحد .

وكادت الحال تصل إلى هذه النتيجة ؛ فقد جرفت الهجرة عدداً وافراً من أبناء الوطن بل بلغ بها الحال أن سافرت بعض الفخائذ العلوية بأكملها ، وإلى اليوم لم يبق بحضرموت منهم أحد . والهجرة وإن تكن قديمة وقد برم بها الامام الحداد إذ يقول :

مشتتون بأطراف البلاد على رغم الأنوف كما تهواه حساد

إلا أنها فى هذا القرن بلغت أقصى ما يتصوره العقل .

٢ — كان من جراء الفوضى أن خربت البلاد وقلت حاصلاتها ، ولم تبق لدى الزراع رغبة فى الزراعة على ضعفها لأنهم يتعرضون للضرائب الفادحة من ناحية الحكام المتعددة أسماؤهم ، ولعبث البادية من الناحية الأخرى .

وكذلك ضعفت التجارة فكسدت الأسواق وكادت تتعطل الحياة الاجتماعية والاقتصادية من كل ناحية .

ضاق بهذه الحالة أعيان القطر الحضرمى وفى مقدمتهم الامام أحمد بن عمر بن سميط ، ونظر إلى الوسيلة التى يمكن بها القضاء على ما آل إليه الأمر : فرأى أنها تنحصر فى الأمور الآتية :

---

(١) راجع عقد اليواقيت الجوهرية ج ١ صفحة ٩٣ طبع مصر سنة ١٣١٢ هـ .

(٢) نفس المصدر ج ١ ص ٩٣ .

(١) راجع من كتابنا (الشهاب العلوى) من تاريخ حضرموت السياسى ، والنهضة السياسية .

١ — نشر العلم بين جميع الطبقات .

٢ — تنظيم الحياة الاقتصادية بما يكفل للبلاد الخير والصلاح .

٣ — الدعوة إلى إيجاد وال عدل ، وبذلك تنتعش الآمال ويسود ما بين الناس الهناء والطمأنينة .

دأب مجاهداً فى سبيل إعلاء هذه الفكرة السامية أربعين سنة[1] وهو لا تفتر له عزيمة ولم تقعد به همة .

ومن أجل هذا « كان يشدد على كل عالم ومتعلم ويلومه أشد اللوم فى ترك الدعوة ولا يتركه حتى يأخذ عليه العهد بالدعوة فإذا جاء ثانياً سأله عما فعل[2] » .

« أخذ يرسل الدعاة إلى القرى قرية فقرية وطلب لهم المعاونة المالية من أربابها[3] كما كان يفيض عليهم من ماله الخاص[4] . فكان الدعاة يجوبون بها طرقها وينادون من على رؤوس المنابر وبعد الصلوات ، وقد يطلع منهم جماعة على منارة جامع القرية فيدعون الناس إلى الله ويتداولون ذلك فيجتمع الناس قياماً وقعوداً فى سطوح بيوتهم يستمعون إليهم ويتعلمون منهم ، ومنهم من يشرف من طاقته منصتاً لذلك[5] » .

ثم ألقى نظرة نحو الناشئة فأخذ فى تعميم الكتاتيب ووضع لها نظاماً خاصاً ، ولم يقصر الأمر على تعليم البنين بل أمر بتعليم البنات .

وكان يقول : « إن البنت التى لم نعلمها أمر دينها ولم نمكن الإيمان من قلبها لا تأتينا بنجباء ، ولا تربى أولادها على محبة الخير . فاجتهد فى تعليم طائفة منهن ثم نشرهن للتعليم فلم تمض مدة وجيزة حتى كانت البيوت تحن بالتعليم والقراءة كأنها بيوت النحل .

وكان الرجال من قبل لا يسمعون لفظة تعيير منهن على التقصير أو الخطأ بل ربما يحبذنهم عليه .

فلما تعلمن كن مهازاً لهم إلى الخير ، وطالما عيرنهم على ظلمهم وقبحنهم على ما يرتكبون منه فلم يعلم إلا الله كم كففن من يد ظالمة وأنهضن من همة نائمة[1] » .

ثم التفت نحو البوادى ، وخصهم بمزيد عنايته وقال : « لا ينبغى لنا أن نلومهم على ما يفعلون إذا لم نعلمهم فإن تعديهم الحدود نتيجة جهلهم . فعلينا أن نزيل السبب الذى هو الجهل فيزول المسبب وهو الظلم » .

وألقى نظرة نحو البوادى المتنقلة وهم الذين لا قرى لهم أو لهم قرى بعيدة لا تبلغها أقدام الدعاة فجعل لهم ليالى تعليم ودعوة إذا جاءوا إلى بلدة (شبام) بقوافلهم وجلبهم فكان الدعاة يأتونهم ليلا فيسمرون عندهم وهم فى محطاتهم خارج البلد على الرمل . فكان الأعرابى يأتى وأنفه فى خزامة الشيطان وينقلب مبصراً بنور الإيمان[2] .

وفى مسئولية أهل العلم يقول :

معاشر أهل العلم قوموا جميعكم ... قيام امرئ فى دعوة الخلق تؤجروا

وتوبوا عن المختار فى نشر ما أتى ... إليكم به عن ربه لا تقصروا

ولا تخذلوا شرع الرسول فإنه ... عزيز عليه ما عنتم بل انصروا

فمن ينصر الشرع الشريف فنصره ... تكفل مولاه به فتدبروا

وما دام مناط الدعوة ونجاحها يرتكز على سمو أخلاق الدعاة والمرشدين وابتعادهم عما يتنافى ومكانتهم الأدبية ودعوتهم لذلك وجه إليهم إرشاداته فقال :

يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً ... إذ عبت فيهم أموراً أنت تأتيها

أصبحت تنصحهم بالوعظ مجتهداً ... والموبقات لعمرى أنت حاويها

ودعوة مثل هذه تستدعى نفقة عظيمة . ومن أجدر بالتسابق والإنفاق عليها من ذوى الهمة والمال ، ولذلك عرض بالحث على الانفاق والمباراة فيه فقال :

لا ينفع المرء إلا ما يقدمه ... لنفسه عند مولى الخلق باريها

ما للحريص على الدنيا سوى كفن ... ولو أتاه من الأموال غاليها

لا تبخلن بدنيا وهى مقبلة ... فليس إنفاقها فى الخير يفنيها

ولا تضن بها فى حال جفوتها ... فليس إمساكها بخلا يبقيها

(يتبع) **على عبود العلوى**

(١) راجع صفحة ٢٥٨ من مجلة الرابطة العلوية السنة الثانية .

(٢) نفس المصدر ص ٢٥٤ و ص ٩٢ ج ١ من عقد اليواقيت .

(٣) الرابطة ص ٢٥٤ .

(٤) تاريخ الشعراء الحضرميين ج ٣ صفحة ١٠٠ نقلا عن حدائق الأرواح .

(٥) صفحة ٢٥٥ من مجلة الرابطة السنة الثانية .

(١) صفحة ٢٥٥ من مجلة الرابطة السنة الثانية .

(٢) المصدر السالف الذكر ص ٣٠٥ .